ليدبروا آياته

الربع السادس عشر

المقطع الرابع من المحور الثاني: قصص الإحياء والإماته الحسية والمعنوية والعبرة منها

(260-243)

{وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (250) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (251) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (252)}

"التفسير الموضوعي وترابط الآيات"

ولما وقفت الفئة القليلة الخُلاصة، الصفوة في ساحة الوغى وثبتوا لما برزوا لجالوت وجنوده، وواجهوهم ورأوا صفوف المقاتلين عيانًا عندها تضرعوا إلى الله -تبارك وتعالى- قائلين: {رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا} أي: ربنا اصبب علينا صبرًا يقوي قلوبنا عند المنازلة حتى لانزل، فإذا تحقق ذلك{وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا} أي اجعل أقدامنا ثابته راسخة في أرض المعركة فلا نفر، وإذا تحقق ذلك{وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ } انصرنا بتأييدك على القوم الكافرين الذين استحقوا الهزيمة لكفرهم بك.
ولما أتوا بالأسباب الموجبة لاستجابة الدعاء من اللجوء إلى الله والتوكل عليه وطلب المدد منه، استجاب الله لهم ذلك الدعاء، ونصرهم عليهم فقال تعالى{ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ} كان داوود عليه السلام مع جنود طالوت، فباشر قتل ملك الكفار بيده لشجاعته وقوته وصبره { وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ } أي: آتى الله داود ومنَّ عليه بتملكه على بني إسرائيل مع الحكمة، وهي النبوة المشتملة على الشرع العظيم والصراط المستقيم، ولهذا قال { وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ} من العلوم الشرعية والعلوم السياسية، ولهذا

قال تعالى: {وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ} [سورة الأنبياء:80]، وقال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ} فجمع الله له الملك والنبوة، وقد كان مَن قبله من الأنبياء يكون الملك لغيرهم، فلما نصرهم الله تعالى اطمأنوا في ديارهم وعبدوا الله آمنين مطمئنين لخذلان أعدائهم وتمكينهم من الأرض، وهذا كله من آثار الجهاد في سبيله، فلو لم يكن لم يحصل ذلك، ثم تذكر الآيات سنة كونية في المدافعة بين الحق والباطل، وهي سنة المدافعة، قال تعالى: { وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ } أي: لولا أنه يدفع بمن يقاتل في سبيله كيد الفجار وتكالب الكفار، ويدفع بأهل الطاعات أهل الفجور لفسدت الأرض باستيلاء الكفار عليها وإقامتهم شعائر الكفر ومنعهم من عبادة الله تعالى، وإظهار دينه، وتمكن الضلال وعمت الشرور، { وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} حيث شرع لهم الجهاد الذي فيه سعادتهم والمدافعة عنهم ومكنهم من الأرض بأسباب يعلمونها، وأسباب لا يعلمونها.

ثم تختتم القصة بهذا التعقيب القرءاني الذي يبين أن الله يقص على نبيه قصص حق لاشك فيه للإعتبار، والإتعاظ، وبيان صدق النبي، وأنه مرسل من الله؛ قال تعالى: {تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ} أي: تلك حُجج الله وبراهينه نقُصها عليك بالصدق الذي لا ريب فيها المتضمن للاعتبار والاستبصار وبيان حقائق الأمور {وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ} قال الشيخ السعدي: فهذه شهادة من الله لرسوله برسالته التي من جملة أدلتها ما قصه الله عليه من أخبار الأمم السالفين والأنبياء وأتباعهم وأعدائهم التي لولا خبر الله إياه لما كان عنده بذلك علم بل لم يكن في قومه من عنده شيء من هذه الأمور، فدل أنه رسول الله حقا ونبيه صدقا الذي بعثه بالحق ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

هداية .... وتدبر

وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا	**لم يجدوا قوة يلقون بها هول عدوهم مثل الدعاء** ينبغي لأهل الإيمان التضرع إلى الله -تبارك وتعالى- ودوام الاتصال به، ومواجهة المخاطر بالدعاء فالمؤمن لا يستغني عن ربه طرفة عين، فهو بحاجة إلى ألطافه

وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا	ومدده وعونه ونصره أن يقويه، وإلا فإن العبد يضيع ويصير إلى هلكة محققة وإلى زوال وتلاشي، وإذا كان في ميدان المعركة فإذا تخلى الله عنه كانت الهزيمة حليفة، والخذلان قرينه. بعض الناس اذا مرض أو أصيب بمكروه، اتهم الناس وتضجر وقال: أُصبت بالحسد أو السحر ويبدأ يشتكي فيزداد أمره سوءًا، وكان الأجدر به أن يقول: يارب، فرج عني ما أنا فيه، ويعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه.
	خروج الإنسان عن حوله وطوله وقوته فلا ينظر إلى إمكانياته وقدراته ومهاراته وآلاته، وإنما يلجأ إلى الله يسأل ربه -تبارك وتعالى- النصر والعون والمدد وأن يُفرغ عليه الصبر، أما إذا التفت المقاتلة إلى أنفسهم وإلى قواهم وقُدرِهم وأعدادهم فإنهم ينهزمون، قال تعالى: {وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ [سورة التوبة:25]، لكن في المقام الآخر: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ} [سورة آل عمران:123]، كنتم في بدر غير مستعدين للمعركة ليس معهم كبير سلاح وعتاد، ولا مراكب كثيرة، ولا عدد كثير ومع ذلك انتصرتم، فالنصر كما قال الله {وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ} [سورة آل عمران:126]، بأقوى صيغة من صيغ الحصر، ليدل على أن النصر لا يكون من غيره.
	على الأمة أن تتحقق بأسباب النصر، وأن تُراجع نفسها، وعملها ونياتها ومقاصدها، وأن يكون الناس على حال من الاستقامة والطاعة فهنا لا يقف أمامهم أحد، إذا كانوا مجتمعين كما في قوله تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا} [سورة آل عمران:103]، وكما قال الله تعالى {وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} [سورة الأنفال:46]، مباشرة نتيجة التنازع هي الفشل، وذهاب الريح والقوة.
	الصبر جاء هنا مُنكرًا وذلك يُشعر بالتعظيم، أفرغ علينا صبرًا عظيمًا يحصل لنا به الثبات والقوة والغلبة على هؤلاء الأعداء.

	هذه الأمور التي ذكرها الله -تبارك وتعالى- على الترتيب إفراغ الصبر أولاً الذي هو الأصل والأساس، فإن من لا يصبر لا يحصل له الثبات وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا، فتثبيت الأقدام يكون نتيجة للصبر، ثم بعد ذلك جاء الترقي إلى النصر؛ لأن النصر يحصل بمجموع ذلك، فلا يحصل النصر لمن لا صبر له، ولا يكون النصر حليفًا لمن لا ثبات له في أرض المعركة، وهكذا أيضًا حينما يكون المطلوب عند مواجهة الأعداء الصبر وفي سائر المقامات التي يحصل بها الضعضعة والاضطراب. وقد تتابع على الناس البلايا والمصائب وتأتيهم تترى في أنفسهم وأهليهم وأموالهم وما إلى ذلك، فيُكثر الإنسان من الدعاء بذلك أن يزرقه الله الصبر، فهذا رُكن ركين لابد من تحققه. وهكذا أيضًا ما يحصل به الثبات الذي يكون سببًا من أسباب النصر وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ هذه الأمور المذكورة ينبغي أن يتذكرها المؤمن دائمًا، وأن لا يغفل عنها لاسيما في حال الشدة والحرب والقتال ونحو ذلك، في مقامات الشدة لا يذكر سوى الله -تبارك وتعالى- لم تلتفت قلوب هؤلاء يمنة ولا يسرة، لم يلجئوا إلى مخلوق فيُخذلوا وإنما ألقوا بحاجتهم وتوجهوا بفقرهم إلى ربهم ومليكهم ومولاهم.
	دعاء الأنبياء في القرآن يكون بهذا الاسم الكريم رَبَّنَا غالبًا، وذلك والله أعلم من معاني الربوبية العطاء والمنع والمدد والنصر والنفع والدفع كل هذا من معاني الربوبية، فإذا أردت شيئًا، قل يا رب، يا رب، والله يقول: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ} [سورة البقرة:186]، ولم يقل: فقل لهم إني قريب، أجابهم مباشرة: {فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} [سورة البقرة:186]، يستجيبون بالطاعة والإيمان والعمل الصالح، وترك مخالفته ومعصيته، فإن

	هذا من أسباب الاجابة.
فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ	مَن صدق الله وأحسن الظن بربه -تبارك وتعالى- ولجأ إليه فالله ناصره، فهؤلاء لما قالوا {رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [سورة البقرة:250]، خرجوا من حولهم وطولهم وقوتهم، والتجأوا إلى الله وابتهلوا إليه، وتضرعوا كما تضرع النبي ﷺ في يوم بدر حتى سقط عنه رداءه يُناشد ربه، وهو أكمل الأمة إيمانًا وأعظمهم يقينًا ومنزلة عند الله -تبارك وتعالى- ومع ذلك بهذه الضراعة فماذا يقول غيره إذًا.
	{فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ}، فالفاء هذه تدل على التعليل وتدل على ترتيب ما بعدها على ما قبلها، فلما كانوا متوكلين على الله هزموهم. وهذا معناه أن الركون على النفس وإلى ما يملكه الإنسان ويحويه ويحوزه من القوة وما يكون معه من العدد والعُدد وما إلى ذلك يكون سببًا إلى خذلانه، هؤلاء في البداية قالوا: {وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا }[سورة البقرة:246]، ثم بعد ذلك حصل منهم التراجع، لكن الفئة القليلة الذين قالوا {رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا}، ولم يلتفتوا إلى شيء آخر سواء أعدادهم أو أن نسبهم أنهم من بني اسرائيل. لذا لابد أن نتعلم أن السند الحقيقي للإنسان هو التوكل على الله، أما الركون والإعتماد على المال أو الأهل أو الزوج أو الأولاد كله لايفيد، ولاينفع، بعض النساء اذا مات زوجها تجزع وتتسخط وتقول من أين أطعم أولادي؟!، ونسيت أن الله هو الرزاق، وبعضهن تربي أولادها لينفعوها في كبرها ويعتنوا بها، ونسيت أن الله هو الجبار الذي يجبر كسرها، وهو اللطيف الذي يلطف بحالها.
وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ	**الدين والملك توأمان ففي ارتفاع أحدهما ارتفاع الآخر وفي قوة أحدهما قوة للآخر** قدم الملك على الحكمة: والحكمة فُسرت بالنبوة والنبوة أعلى مرتبة من المُلك، وذلك كما قال بعض أهل العلم

	باعتبار أن ذلك للترقي، قتل داود جالوت فكان سببًا لعلو مرتبته فعُرف وذاع صيته وحصل له بسبب ذلك المُلك ثم أعطاه الله ما هو أعظم من المُلك وهي النبوة، فحصل له هذا الترقي بالتدريج بهذه الطريقة.
وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ	الأنبياء لا يعلمون إلا ما علمهم الله فكيف بمن دونهم ممن يُدعى لهم الولاية، فهذا لا يصح بحال من الأحوال، لا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم الإنسان إلا ما علمه ربه -تبارك وتعالى. الملائكة قالوا: {سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا} [سورة البقرة:32]، وهكذا الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام، فإن نوحًا قال: {قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ} [سورة هود:47]، بعد أن قال: {إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي} [سورة هود:45]، فبين الله له أنه ليس من أهله يعني أنه ليس من أهل الإيمان. وكذلك إبراهيم جاءه الأضياف من الملائكة على صورة بشر فذبح عجله، وصنع الطعام، وأتعب أهله، وجاء بالطعام ووضعه بين أيديهم فأوجس منهم خيفة حينما لم يطعموا من طعامه، وهو لا يدري أنهم ملائكة حتى أعلموه وهو خليل الرحمن، وكذلك لوط قال لهم كلامه الذي يعتذر به: {لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ} [سورة هود:80]، حتى أعلموه فقالوا: {قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ} [سورة هود:81]، وما كان يدري أنهم ملائكة، وكان يقول لقومه: {هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ} [سورة هود:78]، فلا يعلم الغيب إلا الله، والأنبياء لا يعلمون إلا ما علمهم الله فكيف بمن دونهم وهذا يبين كذب المنجمون، وأصحاب الأبراج، والإطلاع على الشخصيات، ومعرفة المستقبل.
	وهذا يُورث أيضًا التواضع لله، أن الإنسان كلما ازداد علمًا في أي لون من ألوان العلوم ازداد إخباتًا وتواضعًا: {سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا} [سورة البقرة:32]، أشياء مادية: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا }[سورة

البقرة:31]، أسماء الأشياء، كأس، وقِدر، ونحو ذلك، {قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ} [سورة البقرة:33]، فهذه أسماء الأشياء كلها، الأشياء التي عرضها على الملائكة، فإذا كان الملائكة يقولون ذلك فكل صاحب علم ينبغي أن يقول ذلك: { سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا} [سورة البقرة:32]، كيف والعلوم الشرعية التي تدل على الله وتُعرف به، تُعرف بالطريق الموصل إليه، والدار التي يصير الناس إليها، هي أولى العلوم، أن ينكسر صاحبها وأن يُخبت لله، لا أن يتكبر ويتعالى على الناس، ويتعاظم ويصيبه العُجب بسبب هذا العلم ويصير من أهل الزهو والترفع، هذا لا يليق بحال من الأحوال، كل ما ازداد علمًا ازداد تواضعًا وإخباتًا لربه وخالقه والله يقول: {وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ }[سورة النساء:113]، وقال: {وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى} [سورة الضحى:7]، وقال: {مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ} [سورة الشورى:52]، فالله هو الذي يمُن على عباده.	
الخروج من الحول والطول ثم ما يعقب ذلك من النصر لهؤلاء أهل الإيمان كل ذلك يجعل المؤمن لا يركن إلى نفسه ويثق بها الثقة المذمومة. **الثقة بالنفس نوعان:** النوع الأول: محمود، وهي التي تبعث الإنسان على الإقدام والمبادرة والعمل والنهوض بالمهام فلا يكون هذا الإنسان عاجزًا متوانيًا ضعيفًا جبانًا خوارًا لا يثق بنفسه، بخلاف الضعيف الذي لا يستطيع أن يتكلم في مجلسه أو عند أضيافه، أو أن يستقبل أحدًا ولا أن يلقى الناس. النوع الثاني: مذموم، وهي التي يدرسونها في دورات بناء النفس، فيتحدثون عن الثقة بحديث فيه مُبالغة، يجعلون من الإنسان كأنه إله، قوة لا تُقهر في هذا الكون، وهذا الكلام غير صحيح، وبعض من يتكلمون عن هذه الأشياء يذكرون هذا عن أنفسهم، ويذكرونه لغيرهم، ولو وقع لأحد منهم أدنى الأشياء لكان أعجز الناس.	

	وينبغي على المؤمن أن يحذر من مثل هذا وإنما يتبرأ من حوله وطوله وقوته.
	كذلك أيضًا كما يقول الألوسي: "فيه فضيلة الملك وأنه لولاه ما استتب أمر العالم"، ولهذا قيل الدين والملك توأمان ففي ارتفاع أحدهما ارتفاع الآخر؛ لأن الدين أُس والملك حارس، وما لا أُس له فمهدوم وما لا حارس له فضائع.
وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ	هذه سنة من سنن الله الكونية، يدفع بأهل الإيمان صدور الكفار على مر الدهور، ولولا رحمة الله بالعباد لعم الشر والفساد، وشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- يقول: "ولو أمرنا كل ولي مقتول ألا يقتص من القاتل، وكل صاحب دين أن لا يطالب غريمه، بل يدعه على اختياره، وكل مشتوم ومضروب أن لا ينتصف من ظالمه، لم يكن للظالمين زاجر يزجرهم، وظلم الأقوياء الضعفاء، وفسدت الأرض"، فلابد من مُدافعة بين الناس.
	قال (دفع) ولم يقل (رفع) لأن دافع اليوم مدفوع غدا ، ولا (يرفع ويزيل) الإفساد إلا (المؤمنون الصادقون). جاءت بعد قصة طالوت، وقومه مروا بثلاث مراحل: استضعاف ثم مدافعة ثم تمكين.
	تخطيء التحليلات والظنون، وتبقى سنة التسخير والتدافع قانوناً لا يحيد هلاك الطغاة سبيل لتمكين أهل الحق وإقامة حكم الله، وهذه سنة الله سبحانه، إذا أهلك الظالم استبدله بمؤمن طائع، أسأل الله أن يستعملنا ولايسبدلنا.
وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ	ذُيلت هذه الآية بعد هذه الوقائع بهذا التذييل ليحث العباد على الشكر، ونسبة الفضل لله وحده. أوجدهم وخلقهم وأوجد فيهم هذه السنن فيحصل في هذا الكون من الصلاح واستقامة الأحوال ما لا يُقدر قدره فهذه من نعمه على عباده

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات